مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

المحور ٨ - البحث ١٤

أثر المناهج الدينية في القضاء على ظاهرة التكفير

د. عبد الله بن محمد السماعيل
رئيس قسم الدراسات الإسلامية
كلية الآداب ، جامعة الملك فيصل
المملكة العربية السعودية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن المجتمعات الإسلامية تعيش أزمة تردد ونقل وتقليد وفقدان للهوية، أزمة فكرٍ بكلِّ ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، والدليل على أن المشكلة تراوح مكانها حول الفكر هو نظرة الانزواء والاضمحلال لواقع المجتمعات الإسلامية ما جاء إلا نتيجة غياب الفكر من حياتهم، وغياب التعليم الفعال عن أنظمة تعليمهم. والفكر موجود في المجتمعات الإسلامية بشكل أو بآخر، إلا أن إخفاقه في إنهاض الأمة دليل على عدم فعاليته بالصفة التي هو عليها. لذا كان علينا تقرير مدى أهمية العقل – ومنه الفكر – وماهيته، والاستدلال به؛ الاستدلال الصحيح المفضي إلى فكرٍ مجدٍ وفعال.

وتأتي هذه الدراسة العلمية مساهمة متواضعة في هذا المجال، جعلتها بعنوان: " أثر المناهج الدينية في القضاء على ظاهر التكفير"، قصدت بذلك التأكيد على أهمية التعليم الديني الفعال الذي يحقق للمجتمع نهضته، وللفرد الرضا والقناعة بما يعتقده، وقد انتظمت هذه الدراسة بعد المقدمة في خمسة مباحث وخاتمة، على النحو التالي:

- المبحث الأول: في ماهية العقل وأهميته.
- المبحث الثاني: في مشكلة المناهج الدينية.
- المبحث الثالث: في خصائص المناهج الدينية.
- المبحث الرابع: في أثر المناهج الدينية في الإصلاح.
- المبحث الخامس: في ضرورة تفعيل المناهج الدينية للقضاء على ظاهرة التكفير.

- الخاتمة: وفيها عرض التوصيات التي أسفرت عنها هذه الدراسة.

وبعد فلعلَّ هذا المؤتمر يكون فاتحة خيرٍ، ومنطلقاً للعناية والاهتمام بالعلوم الدينية بشكل أكبر وحل مشكلاتها وتطويرها للارتقاء بجودة أدائها، حتى تكون ملائمة مع المتغيرات العالمية والمحلية، ثم إني أتوجه بالشكر الجزيل للقائمين على هذا المؤتمر على إتاحة الفرصة للمشاركة، سائلاً الله تعالى أن يجزيهم على ذلك خير الجزاء، وأن يبارك في الجهود إنه سميع مجيب.

المبحث الأول
في ماهية العقل وأهميته

أولاً: ماهية العقل:

يُعرَّف العقل في معاجم اللغة بتعريفات مختلفة، فيعرف بأنه الحِجْر والنُهى، والإمساك والتحكم والضبط والعلم بصفات الأشياء، ويوصف كذلك بأنه مكان الوعي، والفكر، والشعور، والإرادة، والقلب، .... والعقل: مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، وقيل: "العاقل" الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، وسُمي العقل عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك[1].

ثانياً: أهمية العقل:

ترجع أهمية العقل إلى أمور منها:

- بالعقل ميز الله الإنسان؛ لأنه منشأ الفكر الذي جعله مبدأ كمال الإنسان ونهاية شرفه وفضله على الكائنات، وميزه بالإرادة وقدرة التصرف والتسخير للكون والحياة، بما وهبه من العقل وما أودعه فيه من الفطرة قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُو ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[2].
- وبالعقل يستطيع الإنسان التمييز والتمحيص وفهم نصوص الشريعة وتنزيلها على الواقع، فإن العقل بما يملك من طاقات إدراكية أودعها الله فيه ذات دور مهم في الاجتهاد والتجديد إلى يوم القيامة؛ وذلك بالنظر إلى

(١) انظر: لسان العرب مادة عقل ٤٥٨/١١.

(٢) سورة لقمان، آية رقم (٢٠).

انقطاع الوحي، فالعقل له دور في استقراء الجزئيات والأدلة التفصيلية التي يجمعها مفهوم معنوي عام، باعتباره مبنى من مباني العدل، وهي الأصول الكلية، والقواعد العامة التي تستشرف مقاصد ومصالح إنسانية مادية ومعنوية يعبر عنها بالحاجات والمطالب، والعقل يرد الفروع والجزئيات التي تنزل في الواقع، وليس لها نص إلى الأصول والكليات المنصوصة من خلال ما عُرف بالقياس وغيره. وبدونه لا يمكن ربط الدين بالواقع.

- العقل مناط التكليف بخطاب الشارع طلباً أو كفًّا أو تخييراً أو وضعاً؛ لأن التكليف خطاب، وخطاب من لا عقل له ولا فهم محال، فالمجنون، والصبي الذي لا يميز، يتعذر تكليفه؛ لأن التكليف خطاب من الله ولا يَتلقى ذلك الخطاب إلا من يعقل ويدرك معناه.

وهكذا تبدو ضرورة العقل وأهميته بوصفه أصلاً من أصول المصالح التي بدونها لا مجال للتلقي عن رسالة الوحي بوصفها مصدراً للمعرفة والعلم والتوجيه، ولا مجال لمسؤولية الخلافة الإنسانية وإعمار الكون دون وجود العقل، وإعمال دوره ووظيفته في الفهم والإدراك والتمييز بين المصالح والمفاسد، ومن هنا كفلت الشريعة أحكام حفظه باعتباره كياناً وجودياً في الإنسان، وضابطاً لدوره ووظيفته في الكون.

ومن هذا المنطلق يأتي منظور الشريعة في حفظ العقل، سواء من ناحية الوجود ابتداء بتحصيل منفعته أو من ناحية درء المفاسد عنه أو المضار اللاحقة به.

فأحكام حفظ العقل من ناحية الوجود، هي الأحكام التي تقيم أركانه وتثبت قواعده بحيث تثمر منفعته فكراً مستقيماً، وعلوماً نافعة، ومعارف صالحة، فقد جاءت نصوص الشريعة تحث على العلم والنظر في آيات الله في

الكون، والتفكر فيها بما يعمق الإيمان بالله تعالى وهي أكثر من أن يتسع لها السياق هنا. قال الله تعالى: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[1]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾[2]، ﴿أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

إن الإنسان يزداد عقلاً وتهذيباً وصقلاً بازدياد المعارف والعلوم. فإن مفهوم العلم – في الرؤية الإسلامية – الذي يفيد زيادة عقل، مفهوم شامل يؤدي إلى معرفة الله تعالى والتقرب إليه، بما يحقق مهمة الخلافة في الأرض، وعمارة الكون والحياة.

أما تدابير حفظ عقول الأمة من ناحية ما يدرأ عنها الخلل الواقع أو المتوقع فيتمثل في موقف الإسلام من صور الغلو والانحراف الفكري.

والفكر قد يكون مجرد رأي وصل إليه العقل بطريقة أو بأخرى، وقد يكون عقيدة عند الاقتناع به وتحرك الوجدان نحوه، وانفعال النفس به انفعالاً يظهر أثره في القلب والسلوك، ومن الانحراف في الرأي التعصب لحكم اجتهادي ليس له دليل قاطع في ثبوته أو دلالته. ومن الانحراف في العقيدة إنكار وجود الإله الخالق، وكذلك الغلو في الإيمان بوجوده، غلواً يتنافى مع ما يجب له من الجلال والجمال.

فمن أخطر أنواع الانحراف انحراف الفكر والبعد به عن القصد إفراطاً أو تفريطاً، ذلك أن السلوك نابع منه ومتأثر به، ولهذا كانت العناية بتقويم الفكر وتصحيح الاعتقاد هي أول نقطة في أي برنامج من برامج الإصلاح التي جاء بها الأنبياء، ولذلك يقول الرسول – ﷺ –: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"

(١) سورة آل عمران، آية رقم (٦٥).
(٢) سورة المؤمنون، آية رقم (٦٨).
(٣) سورة الذاريات، آية رقم (٢١).

(متفق عليه). والقلب أحد معاني العقل كما سبق.

والانحراف الفكري ينتج عن خلل في البناء الفكري، وهذا الخلل قد يعود إلى الأمور التالية أو إلى أحدها:

- الجهل بأصول التشريع: الكتاب، السنة، الإجماع، القياس، أو الإعراض عن الأخذ بهذه الأصول أو إحداها، مثل من ينكر حجية السنة مثلاً.
- الجهل بمناهج التعامل مع هذه الأصول، كالجهل بمآخذ الأدلة وأدوات الاستنباط أو الجهل باللغة العربية – لغة الوحي – وأساليبها، وإجمالاً بمنهج تحليل نصوص الوحي واستنباط الحكم منها.
- وجماع الأمرين السابقين صدور الاجتهاد من غير أهله مع الجهل بمقاصد الشريعة والمصالح المعتبرة شرعاً.

إن ظاهرة الانحراف والغلو الفكري تعود في بعض أسبابها إلى الخلل في البناء الفكري والمنهجي، الذي أدى إلى كثير من السلبيات والمواقف التي تتناقض مع المقاصد والمصالح الشرعية العامة للأمة.

ولما كانت المناهج الدينية تلعب الدور الأكبر في صياغة ذهن الإنسان وفكره، وتعمل بدرجة كبيرة في تحديد كيفية تعامله مع مجتمعه ونوعية تعاطيه مع المستجدات العالمية؛ كان لزاماً على علماء الشريعة والمربين والمتخصصين النظر في مشكلة المناهج الدينية – والوقوف عليها، ووضع الحلول المناسبة لتطويرها للارتقاء بجودة أدائها في واقع المجتمع الإسلامي.

المبحث الثاني
في مشكلة المناهج الدينية

لقد أدرك الباحثون أن المناهج الدينية تواجه أزمة حادة وتعتريها مشكلة قائمة، تتمثل في تأخر هذه المناهج وعدم مواكبتها للتطور ومسايرتها للحضارة. فالناظر في أبحاثها وطرائق عرضها يلحظ غلبة الرتابة والجفاف عليها[1]، وافتقارها أحياناً إلى إعطاء تصور واضح عن أهدافها ومناهجها المشتركة [2].

ومن هنا نادى المخلصون بضرورة التجديد في هذه المناهج لتخرج من الدائرة المغلقة التي تدور فيه، وتستطيع بذلك مواكبة العصر، لكن لا يعني ذلك أن نخضع مناهجنا الدينية للمناهج الأخرى فإن هذا يُعَدُّ جناية في حقِّ المناهج الدينية وسلباً لأصولها وخصائصها، التي انفردت بها عن غيرها، ولكن التجديد الذي ننشده يتمثل في إحياء هذه المناهج وتغيير النمط الذي تسير عليه في الأبحاث وطرائق العرض، حتى تحظى بحضور حافل، وتسهم في تقديم النفع للبشرية، كما هو مأمول منها.

ثم إنه لم يعد خافياً على أحد هذا التقدم المبهر الذي حققته العلوم الطبيعية والتطبيقية، ولعلَّ من نتائج ذلك هذه الابتكارات والإنجازات الحديثة، فلا يكاد يمر يوم إلا ونسمع عن جملة من الابتكارات والصناعات وتطوير الأبحاث وتحسين المنتجات، حتى قيل: إن أكثر من ثلاثة أرباع علم الفيزياء قد أنتجه هذا القرن.

(١) انظر: الموضوعية في العلوم الإنسانية للدكتور صلاح قنصوه ص (٤٠٨).
(٢) انظر: مشكلة العلوم الإنسانية ص (٥٢).

لقد احتلت العلوم الطبيعية والتطبيقية مكانة مرموقة في هذا العصر، وغدت لها قدسية عند الناس، فهذا مصطلح العلم يكاد ينحصر في الوقت الراهن على العلوم الطبيعية والتطبيقية دون غيرها [1]، ولهذا السبب تم تنحيت العلوم الإنسانية – ومنها العلوم الشرعية – عن مسمى العلم، ولعلَّ هذا هو السرّ في نشوء التقسيم في بعض مراحل الدراسة، وفي الكليات على أساس أن هناك أقساماً وتخصصات علمية، وأخرى أدبية، ويقصد بالأقسام العلمية تلك التي يدرس فيها العلوم التطبيقية والطبيعية، والأقسام الأدبية هي التي يدرس فيها العلوم الشرعية واللغوية والاجتماعية ونحوها، ولعلنا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن للتخصص دوراً أساساً في تعميق هذه المشكلة وتوسيع نطاقها.

(١) انظر: مشكلة العلوم الإنسانية للدكتورة يمنى الخولي ص (٥).

المبحث الثالث
من خصائص المناهج الدينية

تتميز المناهج الدينية بسمات وخصائص لعل من أهمها:

- أن هذه المناهج منها ما هو واجب تعلمه [1]، سواء كان واجباً عينياً أو كفائياً؛ لأن صحة العبادة مرتبطة بتعلمه، وموافقة العقود والمعاملات لأحكام الشريعة مرتبط بتعلم هذه المناهج، بل حتى ممارسة بعض الصناعات، ومزاولة بعض المهن، وانخراط المسلم بعمل من الأعمال المباحة، يوجب عليه تعلم هذه المناهج المتعلقة بعمله.
- تميز هذه المناهج بكثرة فنونها وعلومها وتشعبها وتعددها، حيث لا تدانيها في ذلك العلوم الأخرى ولا تلحقها، وعلى سبيل المثال فالمناهج المتعلقة بعلم الشريعة تحتها عدة علوم، وتحت كل علم جملة وافرة من العلوم، والمناهج المتعلقة بعلم القرآن الكريم تحتها حوالي ثمانون علماً [2]، والمتعلقة بالحديث ستون علماً، ونجد هذا في علوم السنة النبوية، وعلوم اللغة أيضاً وفي غيرها.

إن المناهج الدينية في الوقت الحاضر لا بد أن تجمع بين العمل بأحكام الإسلام رسالة وكياناً وشريعة ونظاماً، والعمل لترقية المجتمع الإسلامي علمياً وحضارياً، وهذا المنهج لا يتحقق إلا بالصلة العلمية المتينة بين الخبرة الفقهية، والخبرة العملية والتقنية الحديثة، فالمدنية المعاصرة تتميز بتقدم هائل في العلوم والتقنية لم تكن تخطر ببال المجتهدين القدماء، بينما تفتح للمجتهدين

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٨/٨٠).
(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/٢٠).

المعاصرين آفاقاً واسعة تتطلب منهم خبرة غزيرة بأصول الدين والشريعة، وخبرة واسعة بالتطورات التي حصلت في ميادين المعرفة النظرية والتطبيقية، هاتان الخبرتان المتكاملتان اللتان لا تنفصلان في منهجية الاجتهاد في عصرنا هذا، وبذلك تبرز حتمية ذلك الترابط المنهجي عن طريق الإرشاد والاسترشاد بين الاختصاص الفقهي والاختصاص العلمي التجريبي.

المبحث الرابع
أثر المناهج الدينية في الإصلاح

إن المتأمل في المناهج الدينية يجد أنها تدعو إلى نشر الدين بالحكمة والموعظة الحسنة، والرفق واللين في الدعوة والحوار قال الله – سبحانه –: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ فالقول اللين وصية الله لموسى وهارون – عليهما السلام – وهي وصية لكلِّ الناصحين في كلِّ الأزمان، اللين وعاء الدعوة، ودليل الرحمة، يجعل للكلمة قبولاً، وللدعوة تأثيراً، لا يَجْرَحُ كبرياءَ النفس، ولا يُهِينُ كرامتها.

وإذا كان موسى – عليه السلام – وهو نبي معصوم، مؤيد بقوى السماء أُمِرَ بالقول اللين، فما بال غيرِ المعصومين يغفلون عن هذه الوصية، ألا يعلمون أن التمرد على الأحكام والنفور من خطاب الدعوة نتاج أساليب الغلظة والفظاظة والقسر والشدة، أهم خير أم موسى؟ وهل من يدعونهم شرٌّ من فرعون؟ "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه"، رواه مسلم، و"من يحرم الرفق يحرم الخير" رواه مسلم، والله تعالى يقول لنبينا محمد – ﷺ –: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾.

لقد كان نبينا محمد – ﷺ – يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، وبهذا الأسلوب الراقي أحبه الصحابة حباً جماً، إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره، وبذلك دخل الناس في دين الله أفواجاً.

تأمل هدي النبي – ﷺ – مع الشاب الذي جاء يستأذنه في أمر عظيم، يستأذنه في أمر الزنا فالنبي – ﷺ – لم يعنف عليه وإنما حاوره فقال له: هل

ترضاه لأختك؟...لابنتك؟... لأمك؟...،وهو يقول: لا... فقال له النبي – ﷺ –: وكذلك الناس لا يرضونه.....

كذلك هدي النبي – ﷺ – مع الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد فزجره الناس، فلم يعنف عليه المصطفى – ﷺ – بل قال: دعوه، وأريقوا على بوله سجلاً من ماء....

وليس معنى ذلك التساهل في حدود الله، فقد جاء أسامة بن زيد يشفع في حد من حدود الله فغضب النبي – ﷺ – وقال أتشفع في حد من حدود الله وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

ولما رأى قطعة من التوراة في يد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال ما هذا يا عمر، لو أن أخي موسى حياً ما وسعه إلا إتباعي.

فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا مجافاة، وإنما حزم في لين، وشدة في رفق، هكذا كان هديه – ﷺ –.

إذا أدركنا هذا كان لزاماً على العلماء والمربين تجديد الخطاب الإسلامي في المناهج الدينية، وتقريبه للناس دون المساس بمبادئ الإسلام وأحكامه الثابتة.

المبحث الخامس

في ضرورة تفعيل المناهج الدينية للقضاء على ظاهرة التكفير

فإن المناهج الدينية أشد فاعلية، وأكثر وقعاً في العقول والنفوس من أي وسيلة أخرى يمكن أن تؤثر في المجتمع، فهي تقتلع جذور الشر من نفس المجرم، وتبعث في نفسه خشية الله تعالى، وحب الحق، وقبول العدل ومعاونة الناس، وإصلاح الضمائر، وإيقاظ العواطف النبيلة في نفوس الأمة، وبناء الضمائر الحية، وتربية الروح على الآداب الفاضلة والأخلاق الحميدة، وتسكين الفتن، وتهدئة النفوس، لاسيما إذا صيغت بالأسلوب البليغ، والكلمة الساحرة، والحجة الظاهرة، والإثارة والتشويق، والشعور والوجدان.

ولعلَّ من أهم المفردات التي يجب طرقها والتذكير بها والتعرض لها بين الفينة والأخرى في المناهج الدينية ما يأتي:

أولاً: التأكيد على تقوية الوازع الديني:

فالإيمانُ العميق ركيزةٌ مهمة، ودعامةٌ أساسية، ترسخ في النفس الإنسانية معاني العبودية الحقة، وتنمي فيها الشعور بالخشية من الربِّ – جلَّ وعلا –، والخوف من عقابه، ودوام الصلة به ومراقبته، والالتزام بتقواه وطاعته، ويدفع الإيمانُ بالله – تعالى – المسلمَ إلى العناية بالضرورات التي أَكَّد الإسلام على حفظها، ويحول بين الفرد وبين الوقوع في المحظورات، ويحجزه عن التعدي على حقوق الآخرين وانتهاكها، وينشأ في ضميره وازعٌ داخلي قوي، يهديه إلى الفضائل، ويحميه من مقارفة الجرائم والرذائل، ويسمو بإنسانيته عن التردي إلى الحضيض، أو الوقوع في الهاوية، فينتج عن تشبع النفس بالإيمان، وتغذيها بمعانيه العميقة آثارٌ إيجابية تبرز في حياة الفرد حيث يصبح مرهف الحس، رقيق الشعور، مرتاح النفس، مطمئن القلب، مستشعراً للمراقبة الإلهية،

فيسلك المنهج القويم، ويلزم جادة الصواب والصراط المستقيم، ولا يحيد عنها ،أو ينجرف عن مسارها، ولا يتقبل الأفكار النشاز، ولا المؤثرات الوافدة، ولا يلتفت إلى غير ما حكم به التشريع أو قضى به.

وتبرز علامات الإيمان الصادق، ودلالاته الواضحة على الفرد بشعور الآخرين بالاطمئنان للتعامل معه، والثقة به، وأمن جانبه، فلا يخشون من تعدّيه أو ضرره، أو ظلمه أو حيفه، فينعكس أثر إيمانه على أفراد المجتمع، وينعم الجميع بالاستقرار، ويعيشون أخوة متحابين، متراحمين متعاطفين، ويتمكن كلُّ واحد منهم من التمتع بحقوقه الكاملة التي قررها له الإسلام، ويحتفظ بكرامته الإنسانية، ويحس برفعته وعزته، ويأمن على حياته الشخصية التي حفظها وكفلها له.

ومما يوضح أن قوة الإيمان أصلٌ لكل خير وفضيلة، ودرعٌ واقٍ من كل شرٍّ وجريمة، وأنه سياج حاجز دون الوقوع في المحظور والرذيلة، ومصدر ثقة للآخرين بصاحبه، قول الله – تعالى –: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً... الآية ﴾ حيث أخبرت الآية بأسلوب يستبعد احتمال وقوع جريمة القتل من المؤمن على أخيه المؤمن، إلا أن يحدث ذلك عن طريق الخطأ وعدم القصد؛ لأن جريمة القتل من أبشع الممارسات المنافية للإيمان الصادق، والمخالفة لمنهج الإسلام الداعي إلى ترسيخ الإيمان في القلوب، وتربية ضمير المسلم على التشبع به، والارتواء بفيض نبعه، فجريمة القتل لا تصدر إلا من قلبٍ فارغ من الإيمان، روى أبو هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله – ﷺ – قال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن.....الحديث).

إن المناهج الدينية حين تحفز على تقوية الإيمان في النفوس، وترسيخه في القلوب، يثمر ذلك بالشعور بمراقبة الله تعالى، وخوفهم من عذابه، وأليم

عقابه، ويدعو إلى الاستقامة السلوكية، وتصحيح المواقف، وتحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع الشرور والمفاسد، وصفاء الأرواح، وطهارة القلوب، والاستقرار النفسي، والاطمئنان القلبي.

ثانياً: الالتفاف حول ولاة الأمر:

ومن أهم الأمور التي يجب التأكيد عليها في المناهج الدينية؛ طاعةُ ولاة الأمر، فهي أصلٌ مهم، وقاعدة كبرى، ومنهج واضح، وأساسٌ قوي لاستقرار البلاد، واطمئنان الرعية.

والمتأمل للنصوص الشرعية، يجد أنها متواترة وقطعية الدلالة في التأكيد على وجوب طاعة ولي الأمر، وتحريم عصيانه أو الخروج عليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ....﴾ ففي الطاعة اجتماع لكلمة المسلمين، وفي العصيان فسادٌ للأحوال في الدارين، وما نزعت يد من طاعة إلا وصافحها الشيطان، وعرّضها لفتن عمياء، ونزاعات وأهواء، واضطرابات هوجاء، والعاقل يدرك خطورة عصيان ولاة الأمر، وما يجلبه من شرور عظمى، وأخطار ومفاسد كبرى، ويعلم ما في الطاعة من الخير والهدى، وتحقيق السعادة، واستتباب الأمن، وترابط المجتمع وتماسكه، ونصرة المظلوم، ودحر الباطل والجور، والعناية بمصالح العباد والبلاد، وحماية الحياة الاجتماعية من الفوضى والاضطراب، والأخذ على أيدي السفهاء والعابثين، وردع البغاة والمجرمين.

إن طاعة ولي الأمر، واحترام شخصيته وهيبته، مما هو واجب على الرعية لما في مخالفة ذلك من نشر المفاسد، وإثارة الفتن والقلاقل، مما لا يمكن رده ولا دفعه، فذوو العقول السليمة، والفطر المستقيمة، يدركون أهمية الطاعة، ويقدرون العواقب، طريقهم طريق الحق والهدى، ويلتقون على الخير والرشاد والتقوى، وينأون بأنفسهم عن مواطن الشر والأذى، ويحذرون من مزالق الرذيلة والهوى، وطريق المؤمنين حفظ ألسنتهم، والاحتكام إلى كتاب ربهم،

وسنة نبيهم – ﷺ –، كما أمرهم الخالق –جل وعز– بذلك قال – سبحانه –: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ... ﴾ ، أي ردوا الحكم في ذلك إلى الكتاب والسنة؛ لأن الحكماء يدعون إلى الخير، وينشرون الفضيلة، ويحضون على الاجتماع والوفاق، ويحذرون من التنازع والافتراق، فهذا فهمُ المؤمنين، لما أمرهم الله به ورسوله، يسمعون لولاة أمرهم، ويطيعون حكامهم، ويناصحونهم وفق آداب النصيحة، وضوابطها المبينة.

إنَّ طَرْقَ موضوع وجوب طاعة ولاة الأمر، من أهم ما يجب أن تحتويه المناهج الدينية وأن تذكر به بين الحين والآخر، وأن تؤكد على ضرورة الالتزام بالطاعة، وأن التفاف الأمة حول قيادتها دليلُ وحدتها، وطريق فلاحها، وسبيل رقيها ونهضتها ونجاحها، ومصدر عزتها ومنعتها، ومعاونة ولاة الأمر في أداء مهمتم، ومساعدتهم في حماية المجتمع من المفاسد والشرور، من أهم ما يلزم الرعية، والإبلاغ عن المشبوهين الذين يتربصون لإحداث الفوضى، واجب كل مسلم؛ حماية للبلاد من السفهاء والمفسدين، وتجنيباً لها من القلق والفوضى، وقطعاً لطمع الطامعين، ودحراً للسفلة والمعتدين.

ثالثاً: وحدة المجتمع وتماسكه:

تهدف تعاليم الإسلام إلى بناء مجتمع متماسك، تقوم علاقات أفراده على المودة والالتئام، والمحبة والانسجام، وتنحسر فيه دواعي الفرقة والشتات، والتمزق والاختلاف، والشحناء والعداوة، فوحدةُ المجتمع المسلم لا يقاس بها وحدةُ أي مجتمع آخر، فرابطة الإيمان تجمع بين أفراده، على اختلاف ألوانهم وأجناسهم، وهي أشرف الروابط وأوثقها، وأفضل الوشائج وأكرمها.

فالإسلام يجمع ولا يفرق، ويؤلف ولا ينفر، ويقرب ولا يباعد، فالاجتماع قوة ومنعة، والافتراق ضعف وَخَوَرٌ وفتنة.لقد أقام الإسلام المجتمع المدني على أساس المحبة والتواصل، والتعاون والتكافل، وألفَّ رسول الله – ﷺ – بين فئات المجتمع المدني كلها، وقارب بينها، وأبعد عنها أسباب الفرقة والتمزق،

وما يثير الخلاف والنعرات في أوساطه، وأوضح سمو علاقة المسلم بأخيه، والتي ترتكز على الود والتآلف، وتحمل الأخطاء والزلات، والصفح عن المثالب والهفوات، وذلك من أهم وسائل تعميق الأمن في النفوس، وترسيخه في المجتمع.

إن الإسلام يؤكد مبدأ القوة والترابط بين أفراد المجتمع، وتحقيق معاني الأخوة الإيمانية، وعندها يشعر الجميع بوحدة الأمة، وترابط مصالحها، وتلك ركيزة عظمى في توفير الأمن للمجتمع، إذ يدرك كلُّ فرد مسؤوليته، ويقوم بواجبه، فتسهر الجماعة على راحة الفرد، ويقوم الفرد بخدمة الجماعة، فيتكاتف الجميع، ويعلمون على احترام أنظمة مجتمعهم، والتزام بتعاليمه، واحترام حقوق الآخرين، ويتعاون الجميع على مكافحة الفساد، وحماية المجتمع من الجريمة، ومكافحة دواعيها، ووقايته من كل ما يؤدي إلى زرع بذور الشر والفتنة، وسَدّ المنافذ التي قد يتسلل منها الأشرار والمفسدون، والبغاة والمرجفون.

والمجتمع المسلم يعتمد في بناء أفراده على قوة الرابطة التي أسسها الإسلام منذ بزوغ فجره، والمتأمل لحقيقة تلك الرابطة يتضح له أن العقيدة تحرم الأذى والعدوان، وتمنع الظلم والبغي والإجرام، وتحفظ الحقوق، بحيث يجد المسلم نفسه أمام حدودٍ يجب التوقف عندها، وعدم تجاوزها، ويردعه وازعه الديني عن الوقوع في شيء مما منع منه، ويحس بشعور قوي يربطه بأفراد مجتمعه، ويحجزه من التعدي عليهم، ويدفع به إلى الترابط والتماسك معه.

والمناهج الدينية، عليها أن تعنى بترسيخ معنى الوحدة في نفوس أفراد المجتمع، وتعميق أواصر المحبة بينهم، وأن تؤكد بأن الإسلام اعتمد الأخوة دعامةً لوحدة المجتمع، وركيزة للترابط بين أفراده، فلا يسمح الإسلام بقيام أحزاب أو تجمعات من شأنها تمزيق وحدة المجتمع، وتبديد قوته، وتفريق كلمته، أو بروز خلافات ينتج عنها التناحر، أو تسفر عن القطيعة والتدابر،

فذلك شرٌّ عظيم، وخطر جسيم، ينتج عنه الكثير من الأحداث المروعة، والمآسي المفجعة، ويزعزع أمن المجتمع، ويؤدي إلى قلقه واضطرابه.

رابعاً: الاعتدال والوسطية:

التوازن والاعتدال من خصائص التشريع الإسلامي، والوسطية من أبرز مزاياه، فلا جفاء ولا غلو فيه، فالإسلام يمقت كل اتجاه يهدف إلى الغلو في الدين، وينكر المبالغة في التقشف مبالغة تقود إلى التنطع وتجاوز الخطوط المحددة، حيث حَضَّ على الاعتدال، وحّثَّ على التوفيق بين حق العبادة وحق النفس في الحياة، فالغلو والتنطع يتعارضان مع تشريعات الإسلام الداعية إلى التيسير ورفع الحرج والبعد على المشقة، والمتتبع لما وجد من انحرافات عقدية أو عملية من بعض الأفراد والطوائف عبر العصور، وما أفرزته تلك المعتقدات المخالفة لمنهج الحق من أثرٍ سيءٍ على الأمة، ونكبات أصيبت بها، يدرك أن ذلك حصل بسبب الغلو في الدين، وتجاوز الحدود، والفهم السيئ لنصوص الشريعة الإسلامية، مما أدى إلى إحداث الفتن بين المسلمين عبر العصور، وزرع بذور الفرقة والشقاق، فالإسلام يدعو إلى الاستقامة، وسلوك المنهج الوسط، دون انحراف أو تقصير، ويحرم الغلو ويمقته، سواء كان في الاعتقاد أو العبادة أو المعاملة، وكل تصرف صادر من المغالين والمتنطعين يرده الإسلام، مما يخالف أصول دعوته الصحيحة، ومنهج شريعته القويمة، ويؤكد على وجوب إزالة كافة الأسباب المؤدية إلى الغلو، وسدِّ جميع المنافذ الموصلة إلى العنف.

إن دعوة الإسلام إلى الوسطية والاعتدال من أهم ما يجب أن تحتويه المناهج الدينية في التعليم، ومن أبرز ما يجب أن توضحه للمتعلمين، وأن تكشف لهم وسطية الإسلام واضحة في سائر تشريعاته، وأن على جميع أفراد المجتمع أن يستشعروا منهج الإسلام الرصين في دعوته إلى التوازن والاعتدال، والواقع يشهد أن المغالين والمتنطعين أضيق الناس صدراً، وأشدهم قلقاً واضطراباً،

وأكثرهم غضباً وغلياناً، وربما عمدوا إلى استخدام القوة لحمل الآخرين على موافقتهم في آرائهم، وسلوك منهجهم، وقد انزلق البعض في هذا المسلك، حيث سرى في أوساط فئة من الشباب الحكم بكفر فلان، أو وصفه بالفسق، أو العلمنة أو نحو ذلك، وهذا له آثار سيئة تجرع المجتمع آلامها وغصصها، وعاشت الأمة محنها وشرورها، فقد زاغت قلوب تلك الفتن، وطاشت عقولهم، وانحرفت أفهامهم ورغبت أنفسهم عن سلوك المنهج الحق، وأطلقوا لألسنتهم العنان في الحكم على الآخرين بما يرونه، وإخراجهم عن دائرة الإسلام اعتماداً على الأقاويل والشائعات، والشكوك والظنون، والأخبار الكاذبة، والمصادر الواهية.

فلزوم منهج الوسط الذي بنيت عليه الشريعة الإسلامية، هو طريق السعادة الحقة، وأصحابه هم أهل العدل والرحمة، والرفق والتيسير، والتسامح والتعاون، وأحرصهم على تحقيق الأمن والاطمئنان، ونشر الاستقرار والسلام، وأبعدُهم عن إثارة الفتن والفرقة، وهم أهل القرآن وخاصته، الأمة الوسط، الشهداء على الناس، وهم أهل القرآن ومن شرح الله صدره لهذا الدين.

خامساً: الحماية من الانحراف والجريمة:

يواجه الشباب العديد من المخاطر والمستجدات والتغيرات السريعة، والتي بدأت تؤثر في سلوك البعض منهم، وانجرفت بآخرين إلى الانسياق وراء الأفكار المخالفة للإسلام، وأدت إلى انحراف البعض عن جادة الصواب، بسبب بواعث الفساد ونوازع الشر التي أحاطت بالمجتمعات، واكتنفتها من كافة جوانبها. والإسلام وضع القواعد الشرعية التي تحمي الفكر من الانحراف، وتصونه من الزيغ والضلال، وترسّخ في نفس المسلم الثوابت الإيمانية، والاستقامة السلوكية، وتبعده عن الانجراف وراء الأهواء والتقاليد المنافية للدين.

وللمناهج الدينية: أثر فاعل في توجيه الناس – وبالأخص الشباب – للزوم

المنهج الحق، والاستقامة على شرع الله وأمره وصراطه المستقيم، وتقوية الوازع الديني، وإيقاظ الضمير، وتزكية النفس، وبيان محاسن الاستقامة، ومساوئ الانحراف، والتنفير من الإقدام على الجريمة، وإيراد النصوص الشرعية المحذّرة من ارتكابها، المبعدة حتى عن مجرد التفكير فيها، وأن إفلات المجرم من العقوبة الدنيوية لا يعنى أنه سلم ونجا من العقوبة الأخروية، كما أنه لا يستطع الهروب من تأنيب الضمير، والشعور بالخوف من الله تعالى، ومساورة القلق النفسي، والاضطراب الملازم له طوال حياته، وأَنَّ تظاهره أمام أفراد مجتمعه بالاستخفاف واللامبالاة، لا يقلل من إحساسه الداخلي بعظم الذنب، وفداحة الجريمة.

كما أن المناهج الدينية تستطيع أن تؤثر في النفوس، حين تؤكد بين الفينة والأخرى ما أعده الله – تعالى – من الثواب الجزيل لمن كفَّ عن الأذى والعدوان، وحفظ نفسه من نزغات الشيطان، وبما توضحه من حفظ الإسلام للضرورات الخمس (الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال)، وحمايته لها، وبما تحذره من العبث بها والاعتداء عليها، وأن الإسلام قرر عقوبات جزائية رادعة للنفوس المريضة المعتدية، تمنع تصرفاتها الطائشة التي تتحكم بها الأهواء الفاسدة، والأفكار المنحرفة، والنفس الأمارة بالسوء، وأن تلك العقوبات شرّعت لسدّ منافذ الجريمة، وإغلاق أبواب العدوان، والقضاء على العصابات الإرهابية الباغية، التي تعمل على تخويف الآمنين، وتسعى إلى نشر الخوف في نفوس المسلمين، وبث الرعب والقلق في أوساط المطمئنين، وتعتدي على النفوس البريئة، وتسلبها حقها في الحياة، وتعبث في الأرض فساداً وإفساداً.

إنَّ على المناهج الدينية مسؤولية كبرى في توعية الناس بالضوابط الأمنية المحكمة التي قررها التشريع الإسلامي لحفظ المجتمع من الجريمة، ووقايته من الانحراف، ومحاربة الأعمال الإرهابية، والتصرفات الشاذة التي تسعى إلى

الخروج على النظام العام، والإخلال بالأمن، وسفك الدماء، وسلب الأموال، وتدمير الممتلكات، وإثارة الفتن، وتفريق جماعة المسلمين، والعبث بأمن المجتمع واستقراره، وإن كل مخالفة لما جاء في أحكام الشريعة الإسلامية، يعتبر تعدياً، وتصرفاً مقتبساً، وانتهاكاً صارخاً لقدسيتها، يستوجب العقوبة الحاسمة التي قررتها، حتى تستأصل مِن المجتمع دواعي الإجرام، ومسببات الفتنة، وبواعث القلق، ويعيش الجميع في ظلال الإسلام، في أمن وأمان، واستقراره وراحة واطمئنان.

سادساً: العلاقة مع غير المسلمين:

يقوم المجتمع الإسلامي على عقيدة واضحة، وأحكام ثابتة، تنبثق منها قواعده ونظمه، وآدابه وقيمه، فقد اعتمد الإسلام منهجاً ودستور حياة، ومصدراً لأحكامه وتشريعاته، وحرص على تقوية الوحدة الاجتماعية داخل الوطن الواحد، وأكد على ضرورة تماسكها، دون إثارة حساسات، أو افتعال خلافات.

ومن سمات المجتمع الإسلامي إقراره للتعايش وفق منهجه السمح في تعامله مع المخالفين، والمسالمة مع المسالمين، وقد أولى رسول الله – ﷺ – هذا الجانب عناية فائقة، وجعله من أولى اهتماماته عند تأسيسه الدولة الإسلامية الأولى في المدينة، ليقيم نظاماً أمنياً مشتركاً مع الفئات الأخرى، حيث اعتبر توفير الأمن من أهم المطالب، ولم يكن المجتمع –إذ ذاك– مقصوراً على المسلمين فحسب، بل ضمَّ فئات مختلفة من أصحاب الديانات الأخرى، لذلك وضع الإسلام قواعد وأحكاماً تنظم علاقة المسلمين معهم، وتبرز التعايش بينهم وبين المسلمين في المجتمعات الإسلامية على مر العصور، وفي مختلف الأزمان.

لقد قرر الإسلام التعايش الآمن من المخالفين والمسالمين المقيمين في كنف الدولة الإسلامية، وأباح أكل طعامهم، وأحَلَّ ذبائحهم، وجَوَّزَ مصاهرتهم، وأوصى رسول الله – ﷺ –، بحفظ حقوق أهل الكتاب، ورعايتها، وصيانة

دمائهم وأموالهم، وعدم الاعتداء عليهم، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله – ﷺ –: "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً.

وهذا يظهر روح الإسلام السمحة، وعدالته القائمة، وأنها مبذولة للبشرية كلها، لنشر الرحمة، وإشاعة الأجواء الآمنة وتوثيق العلاقات الإنسانية.

إن الإسلام لا يحكم بالفناء على جميع العناصر التي تعيش داخل مجتمعه ممن لا تدين به، بل يوطّد العلاقة بينها وبين المسلمين، ويحترم المواثيق، ويعنى بالعهود، ولا يقبل الغدر والخيانة.

إنَّ المناهج الدينية عليها أن تبرز تلك القيم الإسلامية السامية، والمواقف الحكيمة والعادلة، في نظرة الإسلام إلى غير المسلمين في المجتمع المسلم، وأن وجود جماعات وطوائف عديدة متعايشة مع المسلمين دليل على التزام ظاهرة التسامح، وتجنب الفرقة والاضطهاد، وأن المجتمع الإسلامي لا يعرف النعرات، بل يحرص على إضفاء روح المودة، ونشر الأمن والاطمئنان، والتعايش مع الآخرين لإشاعة أجواء السلام والأمان، وتجنب الخصومات والمنازعات، والبعد عن إثارة الفتن والمنغصات، وما يعصف بأمن المجتمع واستقراره، أو بجلب الضرر لجميع فئاته، أو يزرع الأحقاد والعداوة في صفوفه.

الخاتمة

في ختام هذه البحث أعرض بعض التوصيات التي أتمنى أن تسهم في تطوير المناهج الدينية للقضاء على ظاهرة التكفير في المجتمعات الإسلامية، ولعلَّ من أهم ذلك:

- العمل على تفعيل دور العلوم الشرعية وربطها بواقع الحياة الإنسانية ومتطلباتها وأهدافها، والتأكيد على أصالة هذه العلوم، ومنزلتها بين العلوم الأخرى.
- الاهتمام بتدريس العلوم الشرعية، ورصد الميزانيات لهذا الغرض، وإلا فإن تخصصات العلوم الشرعية في الجامعات وغيرها تواجه خطراً محدقاً؛ نظراً لشح الموارد والأطر التعليمية.
- الاعتناء بالتخصص؛ فقد مضى الوقت الذي يمكن أن تجد فيه من يعرف كلَّ شيء ويتحدث في كلِّ فن، وحتى العلوم الشرعية لم تعد فرعاً واحداً يدركه المتخصص، وإنما اتسعت لتشمل فروعاً عدة في التخصص الواحد. إن النابغين والمتفوقين يوجهون في الأغلب إلى التخصصات العلمية التطبيقية (الطب، الحاسب، الهندسة...)، فهل يليق أن يوجه إلى التخصصات الشرعية أولئك الذين لم تسعفهم معدلاتهم؟!.
- الارتقاء بالتعليم الشرعي؛ فرغم انتشار مدارس التعليم الشرعي ومعاهده، ورغم آثاره الحميدة في نشر العلم الشرعي والحفاظ عليه، إلا أنه يعاني من ضعف وقصور، ويتسم بالنمطية والتقليدية، ويدار بطريقة بدائية. ومخرجات التعليم الشرعي اليوم دون تحديات الواقع ومتطلباته.

ومعلموا العلوم الشرعية بحاجة إلى نقلة في طريقة أدائهم وتفكيرهم. وكثير من مطالب التغيير في التعليم الشرعي التي يثيرها الآخر منطلقها –

المعلن على الأقل – الواقع الفعلي لهذا التعليم وحاجته إلى التطوير. وما لم يتم التطوير من الداخل، وما لم تكن الأصوات المطالبة به صادرة من العاملين فيه الغيورين عليه فلن يكون التطوير في مصلحة التعليم الشرعي.

وتشمل متطلبات التطوير بوجه أخص:

- تطوير أداء المعلمين؛ فنحن بحاجة ماسة إلى الارتقاء بكفايات وقدرات معلمي العلوم الشرعية في مجتمعاتنا، حتى يسهموا في تضييق الفجوة بين إمكانيات التعليم ومخرجاته.
- تطوير المناهج والأخذ بالمفهوم الحديث للمنهج؛ ومن ثم فالتطوير يجب أن يشمل كافة عناصر المنهج من أهداف، وطرق تدريس، ووسائل، وتقنيات، وأنشطة، وكتاب مدرسي.
- تطوير الأداء الإداري والبيئة المدرسية للمعاهد، والمدارس الشرعية.

■ ضرورة إعمال العقل في التعليم وعدم إهماله وذلك بتعليم الطلاب كيف يفكرون، وبتدريسهم طرائق التفكير.

وختاماً: أحمد الله وأشكره على التسهيل والتيسير، وأسأله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أهم المراجع

- أبجد العلوم: لصديق حسن القنوجي. دار ابن حزم. بيروت. ط١ ١٤٢٣هـ.
- الإتقان في علوم القرآن: لجلال الدين السيوطي. دار ابن كثير. دمشق. ط٣ ١٤١٦هـ.
- أحكام التصوير في الفقه الإسلامي: لمحمد بن أحمد واصل. دار طيبة. الرياض. ط٢ ١٤٢٠هـ
- جامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر القرطبي. مطبعة العاصمة. القاهرة. ط٢ ١٣٨٨هـ.
- الطرق الحكمية: لابن قيم الجوزية. مطبعة المدني. مصر.
- علم القانون والفقه الإسلامي: للدكتور سمير عالية. المؤسسة الجامعية للدراسات. بيروت. ط١ ١٤١٢هـ.
- لسان العرب: لابن منظور، دار الفكر، بيروت.
- مجموع فتاوى ابن تيمية. جمع ابن قاسم. مجمع الملك فهد. المدينة المنورة. ١٤١٦هـ.
- المجموع شرح المهذب: لمحيي الدين النووي. دار الكتب. الرياض. ١٤٢٣هـ.
- المدخل إلى السياسة الشرعية: لعبد العال عطوة. مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض ١٤١٤هـ.
- المسائل الطبية المستجدة: للدكتور محمد النتشة. سلسلة إصدارات الحكمة. بريطانيا. ط١ ١٤٢٢هـ.
- مشكلة العلوم الإنسانية تقنينها وإمكانية حلها: للدكتورة يمنى طريف الخولي. دار الثقافة. القاهرة. ط٢ ١٩٩٦م.

- الموضوعية في العلوم الإنسانية عرض نقدي لمناهج البحث: للدكتور صلاح قنصوه. دار الثقافة. القاهرة. ١٩٨٠م.
- نظرية السياسة الشرعية الضوابط والتطبيقات: للدكتور: عبد السلام العالم. منشورات جامعة قازيونس. ليبيا. ط١ ١٩٩٦م.
- وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية: للدكتور محمد الزحيلي. دار البيان. دمشق. ط١ ١٤٠٢هـ.